بسم الله الرحمن الرحيم

٥٦ ـ سورة الواقعة

سميت بها لأنها مملوءة بوقائع القيامة ، التى هى الواقعة العظمى ، لوقوعها فى أشد الأحوال ـ قاله الهايمىّ ـ .

وهى مكية . وآيها ست وتسعون .

وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد شبتَ ! قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت ـ رواه الترمذىّ[1] وقال : حسن غريب .

وعن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الصلوات كنحوٍ من صلاتكم التى تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم . وكان يقرأ فى الفجر الواقعة ونحوها من السور .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٦ ـ حدثنا أبو كريبٍ . حدثنا معاوية بن هشام .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ)

[٢] (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

[٣] (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

« إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ » أى نزلت وجاءت . و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة، أومنقول، سميت بذلك لتحقق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التى لابد من وقوعها . واختيار (إذا) مع صيغة المضىّ ، للدلالة على ماذكر . « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى كذب أو تكذيب . وقد جاء المصدر على زنة (فاعلة) كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعتها نفس كاذبة ، أى تكذب على الله ، أو تكذب فى نفيها . واللام للتوقيت .

قال الشهاب : و(الواقعة) السقطة القوية ، وشاعت فى وقوع الأمر العظيم. وقد تخص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا . « خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ » أى تخفض الأشقياء إلى الدركات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ، لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا)

[٥] (وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا)

[٦] (فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا)

« إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا » أى زلزلت زلزالا شديداً « وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا »

أى فتّتت، أو سيقت وأذهبت، كقوله[1] (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ) «فَكَانَتَ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا» أى متفرقاً . قال قتادة : الهباء ماتَذْرُوهُ الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو مايرى من الكوة كهيأة الغبار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً)

[٨] (فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ)

[٩] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ)

[١٠] (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ)

[١١] (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ)

[١٢] (فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)

« وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا » أى أصنافاً « ثَلَٰثَةً * فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ » تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها. وإطلاق (الميمنة) و(المشأمة) اللتين هما الجهتان المعروفتان، على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار والمفسدون من الناس ـ أصله من تيمُّن العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما فى السانح والبارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوّزاً به ، أو كناية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشأمة بمعنى اليمن والشؤم، فليس بمعنى الجهة، بل بمعنى البركة وضدها،

(١) [٧٨ / النبأ / ٢٠] .

لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفى جملتى الاستفهام إشارة إلى ترقّى أحوالها فى الخير والشر ، تعجُّباً منه .

« وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ » أى الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأُوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين فى السابقين ، وفى أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدى بقوله (ٱلسَّٰبِقُونَ) أبلغ من قرينه . وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مالا يكاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور فى قوله (وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق. ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله (ٱلْمُقَرَّبُونَ) معرفاً بالألف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً فى بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) ـ أفاده الناصر ـ .

و (ٱلسَّٰبِقُونَ) الثانى إما خبر ، أى الذين عرفت حالهم ، واشتهرت أوصافهم على حدّ (وشعرى شعرى) ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

« أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى الذين يقرّبهم الله منه بإعلاء منازلهم « فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٤] (وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ)

« ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم ، وظهور أثره فى أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد فى سبيله ،

إلى غير ذلك من المناقب التى كانت ملكات لهم . « وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ » أى الذين جاءوا من بعدهم فى الأزمنة التى حدثت فيها الغِيَر ، وتبرّجَت الدنيا لخطّابها ، ونسى معها سر البعثة ، وحكمة الدعوة . فما أقلّ الماشين على قَدَم النبىّ صلوات الله عليه وصحابه ! لاجَرَم أنهم وقتئذ الغُرَباء ، لقلّتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)

[١٦] (مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ)

[١٧] (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ)

[١٨] (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

[١٩] (لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ)

[٢٠] (وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

[٢١] (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٢] (وَحُورٌ عِينٌ)

[٢٣] (كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ)

[٢٤] (جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[٢٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)

[٢٦] (إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا)

« عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ » أى مصفوفة ، أو مشبكة بالدرّ والياقوت أو الذهب . و(الوَضْنُ)

التشبيك والنسج . « مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ » أى بوجوههم ، متساوين فى الرتب ، لا حجاب بينهم أصلًا . « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى للخدمة « وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ » أى مبقون على سنّ واحدة لا يموتون . « بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ » أى حال الشرب . و(الكوب) إناء لا عروة ولا خرطوم له . و(الإبريق) إناء له ذلك . « وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى خمر جارية .

ثم أشار إلى أنها لَذَّة كلها ، لا ألم معها ولا خمار « لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا » أى لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمور الدنيا . والصداع : وجع الرأس . وقرئ بالتشديد من التفعل . أى لا يتفرقون . « وَلَا يُنزِفُونَ » بكسر الزاى وفتحها . أى لا تذهب عقولهم بسكرها . « وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ » أى يختارون ويرتضون . وأصله أخذ الخيار والخير .

قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لها ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتى النبيّ ﷺ بثريد ، وأقبل عكراش يخبط بيده فى جوانبه ، فقبض النبيّ ﷺ بيده وقال : يا عكراش ! كلْ من موضع واحد ، فإنه طعام واحد . ثم أتى بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق فقال : يا عكراش ! كلْ من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد ـ رواه الترمذىّ (١) واستغربه ـ .

« وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى يتمنون . « وَحُورٌ عِينٌ » أى وأزواج بيض واسعة الأعين . عطف على (وِلْدَٰنٌ) أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وفيها ، أو ولهم حور . وقرئ بالجرّ عطف على (بِأَكْوَابٍ) . قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال (يَطُوفُ) بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية ، على حدّ قوله (٢) :

* وزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا *

---

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٤١ ـ باب ما جاء فى التسمية فى الطعام .

(٢) صدره : * إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا *

استشهد به فى اللسان ، وقال : إنما أراد (وكحّلْنَ العيونا) .

أو يبقى على حقيقته وظاهره ، وأن الولدان تطوف عليهم بالحور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح ، كما تأتى الخدام بالسرارى للملوك ويعرضونهن عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوّز جعله من الجر الجوارى . قيل : والفصل يأباه ويضعفه . وأما عطفه على (جَنَّٰتِ) بتقدير مضاف . أى هم فى جنات، ومصاحبة حور ـ فقال أبو حيّان : هو فهم أعجمىّ ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومَن عصّبه فقد تعصّب .

« كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ » أى صفاؤهنّ كصفاء الدّرّ فى الأصداف الذى لا تمسّه الأيدى . وأصل (ٱلْمَكْنُونِ) الذى صِينَ فى كِنّ . « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى من الصالحات . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » أى هذياناً وكلاماً غير مفيد، باطلاً من القول . « وَلَا تَأْثِيمًا » أى ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها . « إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا » قال القاشانىّ : أى قولاً هو سلام فى نفسه منزّه عن النقائص، مبرّأ عن الفضول والزوائد . أو قولاً يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبيّن كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهى الإعراب ، أى من كون (سَلَٰمًا) بدلا من (قِيلًا) ، أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوّ السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلام ، كقرأت النحو باباً باباً ، فيدلّ على تكرّره وكثرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ)

[٢٨] (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ)

[٢٩] (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ)

[٣٠] (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)

[٣١] (وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ)

[٣٢] (وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ)

[٣٣] (لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

[٣٤] (وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ)

[٣٥] (إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً)

[٣٦] (فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا)

[٣٧] (عُرُبًا أَتْرَابًا)

[٣٨] (لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٣٩] (ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٤٠] (وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ)

« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ » أى: أىّ شىء هم! أى هم شرفاء ، عظماء كرماء ، يتعجب من أوصافهم فى السعادة « فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » أى لا شوك له . أو موقر بالثمار « وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ » يعنى شجر الموز الذى نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا يعجبون بوجّ ، من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيذة لا نوى لها «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ» أى ممتد منبسط لا يتقلّص « وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ » أى مصبوب دائم الجريان « وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ *لَّا مَقْطُوعَةٍ» أى لا تنقطع عنهم متى أرادوها ، لكونها غير متناهية ، «وَلَا مَمْنُوعَةٍ أى لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة الصيف فى الشتاء ، وتمتنع أحيانا لعزتها أو جدبها « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » أى مرتفعة فى منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاجعهن

فيها . وهو قوله تعالى « إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً » أى بديعا فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس . فالضمير للمذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها . وقيل : على طريق الحقيقة . أى مرفوعة على الأرائك ، كآية[1] (هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ) « فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا » أى لم يطمثن . « عُرُبًا » جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها ، المحبوبة لتبعلها « أَتْرَابًا » أى على سن واحدة « لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ » متعلق بـ (أَنشَأْنَا) أو (جَعَلْنَا) أو صفة لـ (أَبْكَارًا) أو خبر لمحذوف ، مثل هن . « ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ » أى جماعة وأمة من المتقدمين فى الإيمان ، وممن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة . والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين فى أواخرهم دون السابقين ، كما بينا أولا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ)

[٤٢] (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

[٤٣] (وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ)

[٤٤] (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

[٤٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ)

[٤٦] (وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ)

[٤٧] (وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[٤٨] (أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ)

(١) [٣٦ / يس / ٥٦] .

« وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ » أى حر نار ينفذ فى المسام « وَحَمِيمٍ » أى ماء متناهى الحرارة « وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ » أى من دخان أسود ، طبق أهويتهم المردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيآت نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيآت السود الرديئة « لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » أى ليس له صفتا الظل الذى يأوى إليه الناس من الروح ، ونفع من يأوى إليه بالراحة ، بل له إيذاء وإيلام وضرّ ، بإيصال التعب واللهب والكرب « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ » أى منهمكين فى اللذات والشهوات ، منغمسين فى الأمور الطبيعية ، والغواشى البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيآت الموبقة ، والتبعات المهلكة . « وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ » أى الذنب العظيم ، من الأقاويل الباطلة ، والعقائد الفاسدة ، التى استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسره (السبكىّ) بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى[1] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ) . قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله فى عدم البر بالقسم . ولذا تأثره بما كانوا يعتقدونه من إنكار البعث بقوله « وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ)

[٥٠] (لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[٥١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ)

[٥٢] (لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ)

---

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

[٥٣] (فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ)

[٥٤] (فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ)

[٥٥] (فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ)

[٥٦] (هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ)

« قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ » أى الجاهلون المصرُّون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث . « لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ » وهو من أخبث شجر البادية فى المرارة ، وبشاعة المنظر ، ونتن الريح « فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ » أى من ثمراتها الوبيئة البشعة المحرقة « فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الذى انتهى حره وغليانه . قال الزمخشرىّ : وأنّث ضمير الشجر على المعنى ، وذكّره على اللفظ فى قوله (مِنْهَا) و (عَلَيْهِ) « فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ » أى الإبل التى بها الهيام . وهو داء لا رىّ معه ، لشدة الشغف والكلب بها « هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى جزاؤهم فى الآخرة . وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزل ما يعدّ للقادم عاجلًا إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه . وجعله نزلًا ، مع أنه ما يكرم به النازل ، متهكماً ، كما فى قوله :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافَنَا جعلنا القَنَا والمُرْهَفَاتِ له نُزْلَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

[٥٨] (أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ)

[٥٩] (ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ)

[٦٠] (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٦١] (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[٦٢] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)

« نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ » أى معشر قريش ، والمكذبين بالبعث ، فأوجدنا كم بشراً ، ولم تكونوا شيئاً « فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » أى بالخلق . وهم، وإن كانوا مقرين به لقوله[1] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ، لأنه إذا لم يقترن بالطاعة ، والأعمال الصالحة ، لايعد تصديقاً . أو المعنى : فلولا تصدقون بالبعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة « أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ » أى ماتقذفونه فى الرحم من النطف. « ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ » أى بجعله بشراً سويًّا «أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ» أى بإفاضة الصورة الإنسانية عليه . « نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ » أى كتبنا على كل نفس ذوقه . أى: ومن كان سبيله ذلك، فشأنه أن يرهب من نزوله، ويتأهب لما يخوّف به من بعده . والجملة مقررة لما قبلها بإيذان أنهم فى قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ماقدره عليهم من الموت . وفى قوله تعالى (بينكم) زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين « عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ » أى بعدمهلككم، فنجئ بآخرين من جنسكم «وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ» من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله (وَنُنشِئَكُمْ) المراد به إذا بدلنا كم بغيركم ، لافى الدار الآخرة ، كما توهم . وهذا كقوله تعالى[2] (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ » أى أنه أنشأكم بعدأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . « فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى، وهى الإعادة، وأنها أهون عليه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ)

[٦٤] (ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ)

[٦٥] (لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

[٦٦] (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ)

[٦٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ » أى ماتحرثون الأرض لأجله، وهو الحب . و(الحرث): شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها . « ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ » أى تنبتونه « أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ » أى المنبتون. وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأمثالها يقول: بل أنت ياربّ ! « لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا » أى أيبسناه قبل استوائه واستحصاده. وأصل (الحطام) ماتحطم وتفتت لشدة يبسه « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تعجبون من هلاكه ويبسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهادكم فيه الذى ضاع وخسر . أو (تفكهون) على ماأصبتم لأجله من المعاصى ، فتتحدثون فيه . و(التفكه) التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون . وقوله تعالى « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مقول قولٍ مقدّر ، هو حال . أى قائلين ، أو يقولون : إنا لمغرمون . أى ملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من (الغرام) بمعنى الهلاك ، قال[1] :

إن يعذِّب يكن غراماً وإن يعـــط جزيلًا فإنه لايُبـــالِى

« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى حرمنا رزقنا .

---

(١) هذا هو البيت الخامس والأربعون من القصيدة رقم ١ من ديوان الأعشى، ومطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالى ! فهل تردّ سؤالى ؟

والرواية فى الديوان (إن يعاقبْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ)

[٦٩] (ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ)

[٧٠] (لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ » يعنى العذب الصالح للشرب. « ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ » أى السحاب المعبر عنه بالسماء فى غير ما آية « أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ » أى لكم إلى قرار الأرض ، ومسلكوه ينابيع فيها . « لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا » أى ملحاً لا يصلح لشراب ولا زرع « فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله عليكم فى جعله عذباً فراتاً ، لشربكم وزرعكم ، وصلاح معايشكم ومنافعكم .

لطيفة :

قال الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) فى النوع الحادى عشر من المقالة الثانية ، فى بحث ورود لام التوكيد فى الكلام ، وأنها لا تجىء إلا لضرب من المبالغة ، فى سر مجىء اللام فى قوله تعالى (لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا) دون قوله (جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا) ما مثاله :

أدخلت اللام فى آية المطعوم ، دون آية المشروب . وإنما جاءت كذلك ، لأن جعل الماء العذب ملحاً ، أسهل إمكاناً فى العرف والعادة . والموجودُ من الماء الملح ، أكثر من الماء العذب . وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضى المتغيرة التربة ، أحالتها إلى الملوحة . فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد . فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق . وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة فى تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧١] (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ)

[٧٢] (ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ)

[٧٣] (نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ)

[٧٤] (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ)

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ » أى تقدحون. أى تستخرجونها من الزند، وهو العود الذى تقدح منه . « ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ » أى بل نحن جعلناها مودعة فى موضعها . وللعرب شجرتان : إحداهما المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحُكَّ أحدهما بالآخر ، تباين من بينهما شرر النار. وقد تقدم بيانه فى آخر سورة يس . « نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً » أى جعلنا نار الزناد تبصرة فى أمر البعث ، لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضادّ لها ، قادر على إعادة ماتفرقت مواده . أو تذكيراً لنار جهنم . « وَمَتَـٰعًا » أى منفعة « لِّلْمُقْوِينَ » أى المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهى القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأصحر إذا دخل الصحراء، فإن الإفعال يكون للدخول فى معنى مصدر مجرده .

وعن مجاهد : (المقوين) المستمتعين ، المسافر والحاضر .

وعن ابن زيد : هم الجائعون . تقول العرب : أقويت منه كذا وكذا ، أى : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم لها ، خصوا بالذكر مع انتفاع غيرهم بها .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى سبح اسمه. قال الزمخشرىّ : بأن تقول: سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته .

وإما تعجباً من أمرهم فى غمط آلائه وأياديه الظاهرة . وإما شكراً لله على النعم التى عدها ونبه عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ)

[٧٦] (وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[٧٧] (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ)

[٧٨] (فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ)

[٧٩] (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ » أى منازل الكواكب ومراكزها البهيجة فى السماء . أو بمساقطها ومغاربها ، وهى أوقات غيبتها عن الحواس . أو بمساقطها وانتشارها يوم القيامة . و (لا) فى (لا أقسم) إما مزيدة للتأكيد ، وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها فى كلامهم ، كما أوضحه فى (فقه اللغة) . وإما (لا أقسم) بتمامها صيغة من صيغ القسم ، على ما ارتضاه بعض المحققين . « وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » أى لما فى القسم من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة . « إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ » أى له كرم وشرف وقدر رفيع ، لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام « فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ » أى محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن تردد الأيدى عليه ، كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال « لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ » اعلم أن فى الآية أقوالاً عديدة ، مرجعها إلى أن المس مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد للكتاب بمعنى الوحى المتلقَّى ، أو المصحف ، وأن (المطهرون) هم الملائكة ، أو المتقون ، أو المتطهرون من الأحداث والأخباث . وذلك لاتساع ألفاظها الكريمة ، لما ذكر بطريق الاشتراك أو الحقيقة والمجاز . وهاك ملخص ذلك ولبابه :

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عنى بالآية الملائكة . فنفيُ مسّه كناية عن لازمه، وهو نفي الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بـ (المطهرين) حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، ودنس الهيولى، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هـذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) كما قال[1] (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) انتهى. قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفرّاء : لايجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لايقرؤه إلا الموحدون .

فنفيُ مسّه كناية عن ترك تقبّله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مسّ الشيء سبب حب الملموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له . والطهارة حينئذ هى نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والغرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عنى بـ (المطهرين) المتطهرون من الجنابة والحدث. قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهى ، إشارة إلى أن تلك الصفة طبيعة من طبائعه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـ (الكتاب) المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك فى موطئه عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ؛ أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم، أن لايمس القرآن إلا طاهر . وبما روى الدارقطنىّ فى قصة إسلام عمر؛ أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) إلا أن فيهما مقالًا

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠ ـ ٢١٢] .

بيّنه الحافظ ابن حجر فى (تلخيص الحبير) وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية . وقد أوضح ذلك الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) وعبارته :

(الطاهر) يطلق بالاشتراك على المؤمن ـ والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر ـ ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى[1] : (إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وقوله ﷺ لأبى هريرة[2] : المؤمن لاينجس . وعلى الثانى[3] (وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ) وعلى الثالث: قوله[4] ﷺ فى المسح على الخفين: دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين. وعلى الرابع : الإجماع على أن الشىء الذى ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهراً. وقد ورد إطلاق ذلك فى كثير . فمن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حمله عليها هنا . والمسألة مدونة فى الأصول ، وفيها مذاهب . والذى يترجح أن المشترك مجمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لايجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف . وخالف فى ذلك داود . استدل المانعون للجنب بقوله تعالى : (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وهو لايتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و (المطهرون) الملائكة. ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين ، لكانت دلالته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة . لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائما ، لحديث : المؤمن لا ينجس . وهو متفق عليه . فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أومتنجس بنجاسة عينية ، بل يتعين حمله على من ليس بمشرك ، كما فى قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) لهذا الحديث ، ولحديث النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدوّ. ولو

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الغسل ، ٢٣ ـ باب عرق الجنب وأن المؤمن لا ينجس ، حديث ٢٠٤ . (٣) [٥ / المائدة / ٦] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٤٩ ـ باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان ، حديث رقم ١٤٥ ، عن المغيرة .

سلم صدق اسم (الطاهر) على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر . فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملاً فى معانيه ، فلا يعين حتى يبين . وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره ، لحديث (المؤمن لا ينجس) . ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه لمحل النزاع ترجيحاً بلا مرجح ، وتعيينه لجميعها استعمالا للمشترك فى جميع معانيه ، وفيه الخلاف . ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشترك فى جميع معانيه ، لما صح ، لوجود المانع ، وهو حديث : المؤمن لا ينجس . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج . لأنه من صحيفة غير مسموعة ، وفى رجال إسناده خلاف شديد ، ولو سلم صلاحيته للاحتجاج ، لعاد البحث السابق فى لفظ (طاهر) وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير : إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذى ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لا يصح لا حقيقة ولا مجازاً ولا لغة . صرح بذلك فى جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالمؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناوله الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة .

فإن قلت : إذا تم ماتريد من حمل (الطاهر) على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيما ثبت فى المتفق عليه من حديث ابن عباس[1] أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين . و[2] (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ ..) إلى قوله : (مُسْلِمُونَ) مع كونهم جامعين بين نجاستى الشرك والاجتناب ووقوع اللمس منهم له معلوم ؟

قلت : أجعله خاصاً بمثل الآية والآيتين ، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار ، لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث رقم ٧ . (٢) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

لا يحرم لمسه ، ككتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا ، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك . وقد عرفت الخلاف فى الجنب . وأما المحدث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبىّ والضحاك وزيد بن علىّ والمؤيد بالله والهادوية وقاضى القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيى : لا يجوز . واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكانىّ .

تنبيه :

فى لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) فى مباحث أمثال القرآن الكريم، ما مثاله :

الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعانى ، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يقصّر بها ، ويعطى اللفظ حقه ، والمعنى وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط فى كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعانى ، والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر مايصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لايصح، هذا الذى يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهرىّ: الاستنباط كالاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعانى والأشباه والنظائر ، ومقاصد المتكلم. والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه . يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذى من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه . ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول[1] علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ـ كتاب الجهاد، ١٧١ـ باب فكاك الأسير، حديث٩٥

يؤتيه الله عبداً فى كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد المتكلم بكلامه ، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى[1] : (إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبيّ ﷺ ، وأن القرآن جاء من عند الله وأن الذى جاء به روح مطهرة ، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله[2] (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به ، وعمل به ، كما فهمه البخارىّ من الآية ، فقال فى صحيحه فى باب[3] (قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ) : (لَّا يَمَسُّهُۥٓ) لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله[4] (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا) وتجد تحته أيضاً : لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغى ، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه ، مصروفة عنه . فتأمل هذا السبب القريب ، وعَقْدَ هذه الأخوة بين هذه المعانى وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعانى كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه . فهذا من الفهم الذى أشار إليه علىّ رضى الله عنه . انتهى .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٧٧ ـ ٧٩] . (٢) [٢٦ الشعراء / ٢١٠] .
(٣) [٣ / آل عمران / ٩٣] . (٤) [٦٢ / الجمعة / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[٨١] (أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ)

[٨٢] (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

« تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى الذى رباهم بالكمالات، وهداهم إليها بتنزيلها منه. « أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص عليكم فخامة شأنه ، وعظمة مقداره . « أَنتُم مُّدْهِنُونَ » . قال ابن جرير[1] : أى تلينون القول للمكذبين ، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل (الإدهان) ـ كما قال الشهاب ـ جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشىء من الدهن . ولما كان ذلك ملينا له محسوسًا ، أريد به اللين المعنوىّ . على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير له . ولذا سميت المداراة والملاينة ، مداهنة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضًا ، لأن المتهاون بالأمر ، لا يتصلب فيه . « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكر رزقكم إياه تكذيبكم به ، كفراً لنعمته ، وجحداً لمنته .

قال ابن جرير[1] : أى وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم ، التكذيب . وذلك كقول القائل لآخر : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، بمعنى جعلت شكر إحسانى ، أو ثواب إحسانى إليك ، إساءة منك إلىّ .

وقد ذكر عن الهيثم بن عدىّ : أن من لغة أزدشنوءة (مارزق فلان) بمعنى ما شكر. انتهى .

وقد حمل بعضهم (الرزق) هنا على النعمة مطلقًا ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال القاشانىّ : أى وتجعلون قُوتَكُمُ القلبىّ ورزقكم الحقيقىّ ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده ، كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصورىّ . أى لمداومتكم على التكذيب ، كأنكم تجعلون التكذيب غذاءكم . كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاؤه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ)

[٨٤] (وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ)

[٨٥] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ)

« فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ » أى النفس ، لدلالة الكلام عليها « ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ » أى حالة نزعه ، أو تنتظرون لفظه النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ » قال جمهور السلف : يعنى ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنه ما يقاسيه . وبعضهم فسر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول فى تفسير آية[1] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) فى سورة (ق) فارجع إليه فإنه مهم .

وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتى قبلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

[٨٧] (تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

---

(١) [٥٠ / ق / ١٦] .

[٨٨] (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

[٨٩] (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ)

[٩٠] (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٩١] (فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٩٢] (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ)

[٩٣] (فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ)

[٩٤] (وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)

[٩٥] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ)

[٩٦] (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ)

« فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ » أى غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين . من (دانه) أذله واستعبده . « تَرْجِعُونَهَآ » أى تردّون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين . يعنى أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لأمكنكم دفع ماتكرهون أشد الكراهية ، وهو الموت . « فَأَمَّآ إِن كَانَ » أى الميت « مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » أى السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة فى أول السورة « فَرَوْحٌ » أى فله راحة « وَرَيْحَانٌ » أى رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفيأ ظلاله « وَجَنَّتُ نَعِيمٍ » أى يتنعم فيها مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين « وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ » .

قال ابن كثير : أى تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم : سلام لك ، أى لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك كقول الله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . .) الآيات . انتهى .

وقال الرازيّ : فى السلام وجوه :

أولها ـ يسلم به صاحب اليمين ، على صاحب اليمين كما قال تعالى[2] من قبل : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا) .

ثانيها ـ (فَسَلَٰمٌ لَّكَ) أى سلامة لك من أمرٍ خاف قلبُكَ منه ، فإنه فى أعلى المراتب . وهـذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من جانب ولدك، فإنه فى راحة.

ثالثها ـ أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم، كما يقال : فلان ناهيك به، وحسبك أنه فلان. إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازيّ : والخطاب بقوله (لَّكَ) يحتمل أن يكون للنبيّ ﷺ ، وحينئذ فيه وجه، وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبيّ ﷺ ، فإنهم غير محتاجين إلى شىء من الشفاعة وغيرها . فسلام لك يامحمد منهم، فإنهم فى سلامة وعافية ، لا يهمك أمرهم .أو فسلام لك يامحمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم . انتهى .

« وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله « ٱلضَّآلِّينَ » أى الجائرين عن سبيله. « فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ » أى ماء انتهى حرّه ، فهو شرابه « وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ » أى إحراق بالنار « إِنَّ هَٰذَا » أى المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم « لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ »

---

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٢٥] .

أى حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيـــه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الحق اليقين، كما يقال : دار الآخرة ، والدار الآخرة ؛ أو بالعكس، أى اليقين الحق. أو من إضافة العام للخاص، أى كعلم الأمر اليقين. فالإضافة حينئذ لامية، أو بمعنى (من) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن، منعّمة أو معذّبة، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الـكافرين فى النار .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل ، قولًا وعملًا .